على الحاجز

بسّام أبو غزالة ❖

جاء «شيماءَ» المخاضُ. هزّت فراشَ أمِّها حتى أفاقتها، فلملمتْ أطرافَها، ولفّت حول رأسها خِمارَها، وهرولتْ تَصْفِق بقدميها صمتَ طرقات القرية. بسملتْ وحَوقَلتْ ولعنت اليهودَ الذين اعتقلوا صهرَها قبل أشهر، فلم يعد لابنتها مَن يُعنى بحملِها الأولِ غيرُها. طرقتْ بابَ أمِّ سُعدى القابلةِ، حتى إذا جاءها صوتُها تسألُ: «مَن في الباب؟»، أجابتْ، ولهاثُ الطريقِ يضطرب على لسانها: «أمُّ شيماء.» أدركتِ القابلةُ الأمرَ، فردّت بأنها قادمة. وفي عشر دقائق، عادت أمُّها ومعها القابلةُ. وإذ كَشفتْ هذه عن شيماءَ أدركتْ أنْ لا بدّ من أخذِها إلى المستشفى في المدينة.

لم يكن سهلاً في مثل هذا الوقت من الليل إيجادُ سيّارة إلى المدينة. فهرولتْ أمُّ سُعدى إلى دار ابن عمِّها، أبي الفهد، صاحبِ سيّارة الأجرة العاملة على الخطِّ بين القرية والمدينة. لم يكن أبو الفهد ليتخلَّفَ عن مثل هذه الخدمة، بأجرٍ أو بدونه، خاصّةً أنّ زوجَ شيماءَ رهينُ المعتقل، وواجبُ أهل القرية جميعًا أن يُعينوا أهلَ بيته. وإذ أبدى خوفَه من أن توقفَهم دوريّاتُ الاحتلال، لم يجد بُدّاً من أن يتوكّلَ على الله ويمضيَ بركّابِه.

تحرّكت السيّارةُ برفق، بينما شدّت شيماءُ جسدَها إلى أمِّها، ويداها تمرّان على بطنها تحاولان مداراةَ الطلقِ الذي يشتدُّ تارةً ثم يخفتُ أخرى. فإذا انحدرَ الركبُ في الطريق الرئيسة التي سَلِمَتْ من مطبّاتِ طريقِ القرية الفرعيّ، زادَ السائقُ من سرعته قليلاً. بَيْدَ أنّه لم يكدْ يفعل حتى واجهَ حاجزًا طيّارًا اضطرّه إلى أن يقف. لكنّ الجنديّ لم يُحرِّك الحاجزَ الشوكيَّ الذي أقفلَ به الطريق، بل تحرّكَ بتثاقلٍ حذرٍ صَوب السيارة، ووراءه جنديٌّ آخر يحمل رشّاشًا مصوَّبًا في اتجاه الركب. طلبَ الجنديُّ بطاقاتِ الهوية، فأعطاه إيّاها السائقُ. قرأها، ثم سأل:

ـ إلى أين؟

ـ إلى المستشفى. معي ولادة حالتُها صعبة.

ـ ممنوع!

ـ قلتُ لك معي ولادة يجب أخذُها إلى المستشفى!

ـ ممنوع!

ـ أرجوك، هذه حالة طارئة!

تفحّصَ الجنديُّ وجوهَ الركّاب محاولاً مطابقتَها بصور البطاقات الشخصيّة بين يديه. وبغير اكتراثٍ عاد إلى السيّارة العسكريّة المتوقّفة على قارعة الطريق، حيث تفحّصَ البطاقاتِ مع جنديّ آخر، بينما لا يزال الثالث مُصوِّبًا رشّاشَه نحوَ السيّارة المدنيّة. عاد الجنديُّ وأعاد البطاقاتِ إلى أبي الفهد، لكنه أصرَّ على أنّ المرورَ ممنوع. رجاه أبو الفهد، لكنّ الجنديّ أشار إلى ظلام الليل، مردِّدًا: «ممنوع!» فلما ألحّت عليه المرأتان، عاد إلى زميله في السيّارة العسكريّة. وبعد دقائقَ ثقالٍ سحبَ، ببلادةٍ ظاهرة، الحاجزَ الشوكيَّ من نصف الطريقِ وأشارَ بيده للسائق أن يتحرّك.

❖ ❖ ❖

لا تزال الشمسُ مختبئةً خلف الأفق الشرقيّ، لكنها بدأتْ تُرسل خيوطَها الأولى، فتنجلي أمام السائقِ معالمُ الطريق، وتتكشّفُ للناظرِ الجبالُ المكسوّةُ بأشجار الزيتون. بعد حين بدأت الطريقُ تزدحم بالسيّارات. تعوّذَ السائقُ من الشيطان الرجيم، ثمّ قال: «وصلنا حاجزَ

❖ ـ صيدليّ وكاتبٌ فلسطينيّ، مقيم في عمّان.

حُوّارة، الله يستر!» فردّتْ إحدى النساء: «يا قاضيَ الحاجاتِ، يا كريم!» خرجَ السائق من سيّارته مستوضحًا حالَ الطريق، ثم عاد يسأل:

ـ هل تستطيعُ المشيَ قليلاً؟

ـ إلى أين؟

ـ يا حاجّة، عبورُ السيّارات ممنوع، وهؤلاء الخنازير يُصرُّونَ على قطع الحاجز مشيًا.

قالت أمُّ سُعدى القابلة:

ـ أستغفرُ الله العظيم، أخافُ أنْ ينزلَ ماءُ الرأس إنْ هي مشت. خذني إلى الضابط، يا أبا الفهد، لعلّي أقنعُه.

لكنها لم تستطع إقناعَ أحدٍ من تلكَ الصخورِ الصمّاء التي كانت تُغلقُ الحاجزَ أمام مئات السيّارات العابرة. خطرَ ببال السائق أن تركبَ شيماءُ في عربةٍ لنقل الحقائب، فنادى على أحدِ الصبْية الذين يجرّونها. ساعدت المرأتان شيماءَ على صعود العربة. ولكنْ ما إنْ أخذ الصبيُّ يجرُّها عبرَ الحاجز، حتى انقضّ عليهم جنديٌّ، وصاح: «روخ من هون! روخ من هون! ممنوع! ممنوع!» حاول أبو الفهد شرحَ الحالةِ للجنديِّ، الذي أصرَّ على أن تعْبر النسوةُ الحاجزَ مشيًا على الأقدام.

أخذ الطلقُ يشتدُّ، وراح أبو الفهد وأمُّ سعدى يجريان هنا وهناك علّهما يعْثران على ضابطٍ يسمح للمسكينةِ بأن تعْبرَ الحاجزَ بالسيّارة أو بعربة الحقائب. تذكّرتْ أمُّ سُعدى حالَ شيماءَ فعادت إليها مُهرولةً. زاد الطلقُ شدّةً، فأدركت القابلةُ أنّ الولادةَ باتت قابَ قوسين أو أدنى. صرخت شيماءُ صرخةً كتمتْها بخمارها، بينما كانت أمُّها تمسك بيدِها وتمسحُ على رأسها وهي تقرأ ما تيسّر لها من آياتٍ وأدعية، وأمُّ سُعدى تتحسّسُ رأسَ الوليدِ الذي بدأ يخرجُ من بطن أمّه.

اكتمل خروجُ الوليد، لكنَّ نزفًا حادّاً أعقب الولادة، فارتبكتْ لغزارتِه أمُّ سُعدى. قلبت الوليدَ ممسكةً به من قدميه، ثم لفّتْ جسدَه بمنشفةٍ أحضرتْها معها احتياطًا، ودفعتْ به إلى جدّته لكي تتفرّغَ هي لمساعدة شيماء. زاد النزفُ، فزاد ارتباكُ أمِّ سُعدى. تلفّتتْ حولها علّها تجدُ شيئًا توقفُ به النزف، فلم تجدْ أفضلَ من المنشفة التي لفّتْ بها جسدَ الطفل الوليد. أخذتْها من على الطفل وأشارت على أمِّ شيماءَ أن تلفَّ الطفلَ بشيءٍ آخر. حاولتْ أن تسدَّ بالمنشفةِ فرجَ شيماء، فخفّت حدّةُ النزف. لكنّ شحوبًا واضحًا بدا على وجهِ الصبيّة، التي ارتخى جسدُها وأخذت تغيبُ عن الوعي، وأمُّها لا تملكُ غيرَ الاستجارةِ بربِّها والاستعاذةِ به من اليهود والشيطانِ الرجيم.

❖ ❖ ❖

عاد أبو الفهد بخفَّيْ حنين. وإذ تبيَّنَ له ما وقعَ في غيابه، أَسقط على اليهودِ ما أوتيَ من شتائم، ثم لم يجدْ هو والقابلةُ سبيلاً إلاّ العودةَ إلى القرية. أدارَ محركَ السيّارة وقفلَ راجعًا بمن معه. دخلَ الركبُ القريةَ، فامتلأتْ مسامعُهم بصياحِ الديكة وثغاءِ الغنم. صرخَ الطفلُ الوليدُ، فصحت أمُّهُ من غيبوبتها وألقمته ثديَها. هبط الفلاّحون من دُورهم، كما كانوا يفعلون قبل ألفِ حولٍ وحول. أمّا الجنود فواصلوا تعويقَ حركة الناس على الحواجز.

عمّان